جلال الدين السيوطى وفن المقامات

دكتور : السيد على حسن

المدرس بكلية الآداب بسوهاج

يعد الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى (٨٤٩ — ٩١١هـ) عمدة المفكرين الإسلاميين فى القرن التاسع الهجرى فقد كان مثقفا موسوعيا ، وبرع فى علوم ومعارف شتى كالتفسير والحديث والنحو والمعانى والبيان والبديع والجدل والتصوف والإنشاء والترسل والفرائض والقراءات والطب والتاريخ (١)، وانعكس كل هذا على حياته فأصبح من أساطين الفكر .

ويحدثنا السيوطى فى مقدمة كتابه « الأشباه والنظائر» عن شغفه بالفنون العربية على اختلاف أنواعها وتأليفه فيها الكتب المطولة والمختصرة فيقول « إن الفنون العربية على اختلاف أنواعها هى أول فنونى ، ومبتدأ الأخبار التى كان فى أحاديثها سمرى وشجونى طالما أسهرت فى تتبع شواردها عيونى ، وأعملت فيها بدنى إعمال المجد ما بين قلبى وبصرى ويدى وظنونى ، ولم أزل من زمن الطلب أعتنى بكتبها قديما وحديثا ، وأسعى فى تحصيل مادثر منها سعيا حثيثا ، إلى أن وقفت منها على الجم الغفير ، وأحطت بغالب الموجود مطالعة وتأملا بحيث لم يفتنى منها سوى النذر اليسير ، وألفت فيها الكتب المطولة والمختصرة وعلقت التعاليق ما بين أصول وتذكرة ، واعتنيت بأخبار أهلها وتراجمهم وإحياء مادثر من معالمهم ، وما رووه أو رووه ، وما تفرد به الواحد منهم من المذاهب والأقوال ضعفه الناس أو قووه ، ومع ما وقع لهم مع نظرائهم وفى مجالس خلفائهم وأمرائهم من مناظرات ومحاورات ومجالسات ومذاكرات ومدارسات ومسايرات ، وفتاوى ومراسلات ، ومعاناة ومطارحات ، وقواعد ومناظيم ، وضوابط وتقاسيم ، وفوائد

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى حـ ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

وفرائد ، وغرائب وشوارد ، حتى اجتمع لى من ذلك جمل ، ودونتها رزما ولا أبالغ وأقول وقرجمل[١] . . . » .

وقد ذكر السيوطى فى ترجمته لنفسه فى كتابه حسن المحاضرة أن كتبه بلغت ثلاثمائة كتاب إذ يقول :« وشرعت فى التصنيف فى سنة ست وستين وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه[٢] .

وقال الداودى المالكى تلميذ السيوطى إن كتب أستاذه أنافت على خمسمائة مؤلف . وذكر ابن إياس فى كتابه « بدائع الزهور » أنها بلغت ستمائة مؤلف[٣]

وكان السيوطى شديد الاعتزاز بمؤلفاته وتفوقه فى علوم شتى ، كما كان كثير الاعتداد بنفسه واجتهاده كما فى قوله : ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله[٤] » .

وكما كان السيوطى طويل الباع فى مجال التأليف والتصنيف فقد كان أيضاً كاتبا بليغاً ذا مقدرة وبراعة تبدو فيما كتب من رسائل ومقامات .

والمقامات فن أدبى قصصى نشأ فى العصر العباسى وانتشر فى القرن الرابع الهجرى متأثرا فى شكله ومضمونه بظروف العصر والمجتمع ؛ فقد تضمنت المقامة الشكوى والتسول أو مايعرف بالكدية ، فى أسلوب متأنق فيه فن وتصنيع

وقد ظهر هذا الفن متكاملا على يد بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨هـ) الذى ألف مقاماته فى أثناء نزوله بنيسابور ، ويقال إنه كان يختم بها دروسه

---

(١) مقدمة الأشباه والنظائر فى النحو .

(٢) حسن المحاضرة ص ٣٣٨ .

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٥ .

(٤) حسن المحاضرة حـ ١ ص ٣٣٩ . ولعل هذا ما أثار عليه بعض معاصريه وجعلهم ينفسون عليه ولا سيما السخاوى المؤرخ الذى هاجم السيوطى فى كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع واتهمه بأنه اختلس الكثير من مؤلفات شيوخه وغيرهم . وقددافع السيوطى عن نفسه وهاجم السخاوى فى رسالة له أسماها الكاوى على تاريخ السخاوى .

على الطلاب ، وكان يحاضرهم فى مسائل لغوية ونصوص أدبية ، معارضا بذلك أحاديث ابن دريد الأربعين التى اتجه بها إلى غاية تعليم الناشئة أساليب العرب ولغتهم[١] .

وقد كتب بديع الزمان اثنتين وخمسين مقامة اتخذ لها راوية هو عيسى ابن هشام وبطلا هو أبو الفتح الاسكندرى .

ثم جاء أبو محمد القاسم بن على البصرى الحريرى (ت ٥١٥ هـ) فسار على نهج بديع الزمان وعارضه بخمسين مقامة جعل راويتها الحارث بن همام وبطلها أبا زيد السروجى[٢] .

وقد أنشأ الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) خمسين مقامة تدور كلها على الوعظ والتذكير بالآخرة وردع النفس عن شهواتها ، بيد أنه لم يجعل لها راوية ولا بطلا[٣].

ثم يأتى ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) فيؤلف خمسين مقامة على نسق مقامات الحريرى فى موضوعات أدبية شتى ، ولكنه يتجه بها اتجاها وعظيا .

ويجئ من بعده ابن صقيل الجزرى (ت ٧٠١ هـ) فيؤلف خمسين مقامة أيضاً يجعل أكثرها فى الحديث والفقه والنحو .

ثم يأتى جلال الدين السيوطى ليكتب مقاماته التى بلغت أربعين مقامة ، أحصى منها أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة ثمانى عشرة مقامة بين مخطوطة ومطبوعة ، يقول : « إن الأخبار تذكر لنا أن السيوطى كتب أربعين مقامة ، وإن كانت عملية الاستقصاء التى قمت بها لم تهيء لى حتى الآن الحصول على أكثر من ثمانى عشرة مقامة بين مخطوطة ومطبوعة »[٤] .

---

(١) انظر المقامة للدكتور شوقى ضيف ط ٤ دار المعارف ١٩٧٦ ص ١٦ .

(٢) راجع المقامات الأدبية للحريرى ط ٣ البابى الحلبى بمصر ١٩٥٠ .

(٣) انظر المقامة للدكتور شوقى ضيف ط ٤ دار المعارف ١٩٧٦ ص ١٦ .

(٤) « السيوطى كاتبا أديبا » مقالة بكتاب جلال الدين السيوطى طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ ص ٣٩٨ .

بيد أنى عثرت – وأنا أقوم بجمع مادة هذا البحث – على مخطوطة بمكتبة رفاعة رافع الطهطاوى بمدينة سوهاج تحوى عشر مقامات للسيوطى ، وتضيف جديدا إلى مقاماته المتداولة يتمثل فى مقامة قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض ، ومقامة فى فضل مكة والمدينة[1] . وأقوم حاليا بتحقيق هذه المخطوطة ضمن خطة الكلية فى نشر التراث .

ومقامات السيوطى أشبه بالرسائل والمقالات، فهى تخلو – فى معظمها – من الراوية والبطل ، وتتنوع هذه المقامات فى أشكالها فهى تأتى فى شكل مقالة أو مفاخرة أو مناظرة ، وأحيانا تكون فى إطار الشكل القصصى المألوف عند من سبقوه من كتاب المقامات ، كما تتباين فى موضوعاتها[2] فتارة تكون مقالا دينيا أو علميا كالمقامة السندسية فى خبر والدى خير البرية ، ومقامة قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض ، ومقامة فى فضل مكة والمدينة ، وتارة تكون مقامة فى المفاخرات أوالمناظرات كالمقامة الوردية والمقامة التفاحية والمقامة الياقوتية والمقامة المسكية والمقامة الفستقية .

وتعد مقامته قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض مقالا دينيا علميا ، وهو لم يسلك فيهانهج المقامة القصصية المألوفة فلم يجعل لها راوية ولابطلا وإنما بدأها بحمد الله الذى أعز أولياءه المقربين والأبرار، ووعدهم بالانتصارعلى أعدائهم، والصلاة والسلام على النبى المختار ، وعلى آله وصحبه السادة الأخيار .

ويمضى السيوطى فى مقامته فيبين فضل الأولياء وعلو منزلتهم عند الله ، مؤكدا ذلك بالأحاديث والأشعار ، فيقول :« هم خيار الأمة ، والأنوار التى تضئ فى الظلمه ، وبهم تفرج كل غمـه ، وتزاح كل ملمه ، نهاهم حبه لما سقاهم حب الوصل له :

---

(١) المخطوطة برقم ٣١٢ أدب وتبلغ صفحاتها ١٧٥ صفحة من القطع الصغير وتبدأ بالمقامة السندسية وتنتهى بمقامة فى فضل مكة والمدينة ، وكان الفراغ من نسختها سنة ٩١٦ هـ .

(٢) انظر مقالة د . مصطفى الشكعة السابقة ص ٣٩٨ .

لم يعبدوا من خوف نار ولا شوقا إلى ما فى الجنان
ولكن كان مولى ذا جلال له الإجلال فرضا فى الجنان
لهم شغل بمولاهم بذكر وشكر والتهجد بالقران
نجاب فتية غر كرام من العلياء فى أعلى مكان
بحور العلم أوتاد لأرض ملوك الخلق أقمار الزمان

وهم الكاشفون بلطائف المعارف ، والطالعون بطرائف العوارف ، وردت بذكرهم الأخبار ، ورويت فى مآثرهم الآثار عن الأحبار ، وجاءت الأحاديث بأنهم السابقون ، والاخيار الصادقون : لكل قرن من أمتى سابقون ، بهم يغاث الناس وبهم ينصرون ، وبهم يرزقون وبهم يمطرون ، وبهم يجارون ، وبهم يدفع عن أهل الأرض مابه يضارون ، وبهم يحيى الله ويميت ، ويسقى عباده ويقيت ، وبهم ينزل الغيث ، وبهم يصلح العيث وبهم ينبت للخليقة منبتها ، وبهم تخرج الأرض بركتها ، وبهم ينتصر على الأعداء ويرفع أنواع البلاء ، ويصرف العذاب والابتلاء(١).

ثم ينتقل السيوطى إلى التصدى لمن تهجموا على ولى الله الشيخ عمر بن الفارض وقوضوه بعد موته ، مبينا فضله وتقواه ، وعلمه وتصوفه ، وما خصه الله به من كرامات ، فيقول : « لاهم وقفوا عند نص القرآن ، ولا هم امتثلوا ما ورد عن سيد ولد عدنان ، ولا هم جنحوا إلى طريقة جارية على قانون الحق والفرقان

ليت شعرى أى علم أتقنوه ليت شعرى أى فن أحكموه
إن تسلهم عن معانى بعض ألفاظ أتت فى شعره لم يفهموه

قال تعالى فى كتابه العزيز محذرا ناطقا جهولا : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » وقال النبى صلى الله عليه وسلم مرشدا إلى الدين ومعالمه : « الأمور ثلاثة : أمر تبين لك رشده فاتبعه ، وأمر تبين لك غيه فاجتنبه ، وأمر اختلف فيه فرده إلى عالمه » ، وقال عمر بن الخطاب محسنا للظن بالمسلم ومجملا : لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها فى الخير محملا ».

(١) مقامات السيوطى « المخطوطة » ص ٣٠ ، ٣١ .

تضافرت النصوص والنقول على وجوب تحسين الظن بالمسلم ، وفتح باب التأويل لما أشكل من كلامه وأبهم ، خصوصا من اشتهر بالصلاح ، وبدا منه الخير ولاح ، وغدا ذكره وراح ، وشاع خبره فى البطاح . . . وكان الشيخ قبل تجرده من الفقهاء الأعلام ، وولى القضاء والأحكام[1] ».

ثم يحدثنا السيوطى عن مكانة ابن الفارض الأدبية وعدم تكلفه فى استخدام السجع وألوان البديع ، فيقول : « واما محله من الأدب فكانت النكت الأدبية تنسل إليه إذا نظم من كل حدب إلى شعره ، والأعلى تبحره فى حفظ اللغات وجمعه منها للشتات . وأما الجناسات وأنواع البديع فكمر السيل ، وكجر الذيل ، روض مفوف ، وطبع قط ما تكلف . وما زالت الأعلام وغيرهم يلحظونه بعين التعظيم ، ويحلونه محل التبجيل والتكريم[2] ».

لقد حقق السيوطى لأسلوب المقامة السهولة والوضوح ، وابتعد به عن الحشو والتعقيد ، وجاء سجعه غير متكلف ، وهو يمتدح هذا الاتجاه فى أسلوب الشيخ عمر بن الفارض .

وتعد مقامة السيوطى فى فضل مكة والمدينة مقالا دينيا علميا أيضاً ، فقد خلت من الراوية والبطل ، ولم يجر فيها على نسق المقامات القصصية المألوفة عند من سبقه من كتاب المقامات ، بل حشد فيها ثقافة دينية وبدأها بالحديث عن قدسية البيت الحرام وحرمة مكة ، فقال : « فسبحان من جعل لعباده حرما آمنا سواء العاكف فيه والبادى ، وآمن فيه كل خائف لجأ إلى ناديه وأكرم بذلك النادى ، جمع فيه جمل الصلاح ، ومنح فيه حمل السلاح ، وحرم من حل به حتى الطير والوحش ، وكرم ما سامته فهو حرم بحياله إلى تخوم الأرض السابعة وإلى العرش وعظم حرمته فى قلب كل مخلوق وقذف له فيه الرعب والفرق ، حتى ورد أن كبار الحيتان لم تكن تأكل صغار ها فيه زمن الغرق ، وقد صح أن مكة حرمها الله يوم خلق السموات والأرض والشمس

---

(١) المخطوطة ص ٣٧ — ٣٩ .
(٢) نفسه ص ٤٠ .

والقمر وشرفها فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لايختلى خلاها ، ولايعضد شجرها ،ولاينفر صيدها ، ولايلتقط لقطتها إلا من عرفها» .

ويتابع السيوطى حديثه عن مكة وحرمتها فيذكر أسماءها وكناها وتكريم الله تعالى لها فيقول: «فهى ذات الأسماء والكنى والألقاب،وربة البراقع والنقاب والأنقاب هى مكة وبكة والبلد والبلدة والمأمون والأمين والحرم والكعبة وطيبة والراس والبيت العتيق الثمين والعرش والعريش ، والقادس والمقدسة والقادسة ، والباسة والقرية والثنية وكوثر ، والحاطمة والنساسة والناسة، وهى صلاح بالبناء على الكسر من باب حذام وقطام ،والعطشة والرتاج وبرة والمسجد الحرام والبيت الحرام ، وأم رحم وأم زخم من كناها ، وكثرة الأسماء تكون لشرف مسماها ، فهى خير أرض الله وأطيبها لديه ، وأحب البلاد إلى الله وأكرمها عليه، تضاعف فيها السيئات كما تضاعف الحسنات ، فالحسنة فيها بمائة ،والخطيئة بمائة من الخطيئات والصلاة وصوم رمضان فيها بمائة ألف ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ولو بقول خلف. . . فهى البلد الأمين ، وواسطة العقد الثمين ، وبه أقسم الله تعالى فى كتابه المبين ، المقام بها سعادة ، والخروج منها شقوة وهى أقرب الأرض إلى السماء وأعلاها ربوة» . (٢)

ثم يعرض السيوطى لذكر الكعبة دعامة الإسلام ، فيذكر أفضالها ومآثرها، فيقول : « وأما الكعبة وماأدراك ماالكعبة ، فهى دعامة الإسلام والأساس ،والتى إذاعدت البيوت الفاضلة كانت هى الوجه والراس ، جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس ، جعلت مثابة للناس وأمنا، وجلت فجلت كل قلب مضنى ، عروس تتحلى فى الحلى ، وترفل فى ذيول العلا، وما أحسن قول بعض الفضلا :

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) نفسه ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

ألبسوا الكعبة الشريفة ثوبا أسودا وهى نورها مستزيد
قلت هافا عجبوا لبيت عتيق كل عام له شباب جديد

أول بيت وضع ، وأجل بيت رفع ، رفع الله أعلامها فى الابتدا ، ونصب إشارة القبول للمضاف إليها بالندا ، وتعرف ممن تعلق بذيولها ، ولم يقطع عائد موصولها ، فهى ملجأ الخائف وملاذ الطائف ، وحمى البادى والعاكف :

لقد طاب الطواف لنا ورقت حمياه ولذ بها المدار
وملنا لليسار بفرط سكر فإن الكأس مجراها اليسار

مابعث الله قط ملكا ولاسحابة كماورد فى الأثر إلا طاف بالبيت أولا ثم يمضى حيث أمر ، ومامن سماء ولا أرض إلا وفيها بيت بإزائه ، ولكل بيت عمار وزوار فجملة البيوت أربعة عشرأوأوخمسة عشر كما ورد فى عدة من الآثار .. دخولها من النفاق أمان ، والنظر إليها عبادة ومحض الإيمان »(١) .

وبعد أن يعرج السيوطى على الأماكن المقدسة ومناسك الحج مثل الحجر الأسود والصفا والمروة وجمع وعرفات ومنى وزمزم ينتقل إلى الحديث عن المدينة المنورة فيذكر فضلها وحرمتها وأسماءها وكناها ، فيقول : (٢)

« وعرج على المدينة فهى صاحبه العلمين ، وثانية الحرمين ، والمشاركة لمكة فى التفضيل والتكريم ، وفى مضاعفة الصلاة والبركة والتحريم ،وهى دار الإيمان وقبة الإسلام وأرض الهجرة ومبوأالحلال والحرام ، المسماة فى القرآن بالمدينة والدار والإيمان ، وفى التوراة بطيبة وطابة وجابرة والمجبورة والمدينة،والمرحومة والعذراء والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمسكينة . ومن أسمائها تيدد والبلاط وحسنة وحبيبة والمحببة ومدخل صدق ودار السنة ودار الهجرة والبحرة والبحيرة والمطيبة واحذر أن تسميها يثرب فتضل ، قال صلى الله عليه وسلم : « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عزوجل» وإنما ذكر هذا الاسم فى القرآن حكاية عن قول المنافقين

(١) المصدر السابق ص ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٢) نفسه ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

قرية تأكل القرى وتجزل القرى ، وتنفى الخبث والفرى ، وتأبى الضيم والحيف ، وفتحت بالقرآن وفتح غيرها بالسيف ، تربتها مؤمنة ، وشفاء من الجذام ، وبركتها مثلا بركة المسجد الحرام ، وبها عزت كلمة الإسلام وعلت وغالب الفرائض نزلت ، وتقررت الشرائع وأكملت .

ومما ساوت فيه مكة أن من مات بها حصل له الأمن والشفاعة ، وليس ذلك لبقعة . ولما كان أهل مكة يطوفون بين كل ترويحتين جعلت تراويح أهل المدينة ستاوثلاثين ركعة . وكلاهما يمنع الكافر من حلوله ، ويطرد عن دخوله ولا يدخلهما الدجال ولا الطاعون .

فلذلك كانا كفرسى رهان ، وانعقد الإجماع على أنهما أفضل من سائر البلدان » .

وهكذا يبدو لنا السيوطى ذلك العالم الجليل والناثر البليغ الذى جمع فأوعى وقدم لنا فى هذه المقامة ثقافة دينية وعلمية قيمة

والمقامة الذهبية فى الحمى للسيوطى تعد مقالا وعظيا عمد فيه إلى وعظ الناس وإرشادهم وتخفيف ويلاتهم عندما تحل بهم الحمى ؛ فهو يرى أن الحمى ابتلاء من الله تعالى ، إذا صبر الأنسان على اجتيازه نال ثواب الله ورضاه . وتبدو فى هذه المقامة ثقافة السيوطى الطبية وبراعته فى ذكر العديد من مزايا الحمى وفوائدها ، وهو يدعم آراه بآيات بينات من القرآن الكريم ، وبالأحاديث الشريفة فهو يقول فى الحمى (١) « وإنها كسر من جهنم ، فما أصاب المؤمن منها كان حظه منها من النار» وإنها جعلت كفارة وطهورا من الذنوب ، وتذكرة للمؤمن بنار جهنم كى يتوب . . .

ولها منافع بدنيه ،ومآثر سنية غير دينية ، وذلك أنها تنقى البدن ، وتنفى عنه الأفن والعفن ، رب سقم فى البدن أزلى ، ومرض عولج منه زمانا وهو ممتلى ، فلما طرأت عليه أبرأته فاذا هو منجلى ، وربما صحت الأجساد بالعلل ، وقال بعض الأطباء فى حكمه الكافية : كثير من الأمراض يستبشر فيها بالحمى كما يستبشر المريض بالعافية ، وذكروا أنها تنتج كثيرا من السدد ، وتنضج من الأخلاط

(١) المخطوطه ص٥١ ـ ٥٦ .

والمواد ما فسد ، وتنفع من الفالج واللنوة والتشنج الامتلائى والرمد ، وقد أمر فيها بالصدقة والرقيه ، وفيها أى بلاغ وتقبه ، قال خير من جاء بالصدق وصدقه : داووا مرضاكم بالصدقه » .

فى هذه المقامة كما نرى تتجلى لنا مقدرة السيوطى وبراعته فى الطب والعلاج والوعظ والإرشاد .

وتعد المقامة الوردية أو مقامة الرياحين من أفضل مقامات المفاخرات عند السيوطى ، وقد أجراها بين طائفة من الأزهار هى : الورد والنرجس والياسمين والبان والنسرين والبنفسج والنيلوفر والآس والريحان ، وجعل كل زهرة تفخر بنفسها ، وتنيه على غيرها ، وتذكر أسباب تفوقها ، وتحاول جاهدة أن تفوز بعرش الزهور فى أسلوب حجاجى وجدلى طريف ، وبدأ بالورد فقال(١) « هجم الورد بشوكته ، ونجم من بين الرياحين معجبا بإشراق صورته ، وقال : بسم الله المعين وبه نستعين ، أنا الورد ملك الرياحين ، والوارد منعشا للأرواح ومتاعا لها إلى حين ، ونديم الخلفاء والسلاطين ، والمرفوع أبدا على الأسرة لا أجلس على ترب ولا طين ، والظاهر لونى الأحمر على أزهار البساتين .

ويمضى السيوطى فيذكر الفوائد الطبية للورد ، فيقول على لسان الورد :

« أسكن حرارة الصفراء ، وأقوى الباطن من الأعضاء ، وأطيب رائحة البدن ، من شم مائى وبه عشى أو صداع حار سكن ، وأقوى المعدة ، وأفتح من الكبد السدد ، وأنفع الأحشاء ، وأقوى الأعضاء ، أنا ومائى ودهنى كيف شاء ، وأبرد أنواع اللهيب الكائنة فى الراس ، وربما أستخرجها منه بالعطاس ، وأنبت اللحم فى القروح العميقة .

وكفى رفعة على الأقران أن لفظى مذكور فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة الرحمن : فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .

وقال الشاعر :

للورد عندى محل لأنه لايمل
كل الرياحين جند وهو الأمير الأجل

(١) المخطوطة ص ٥٧ — ٦١ .

وقال الآخر :

مليك الورد أقبل فى جيوش من الأزهار فى حلل بهيه
فوافته الأزاهر طائعات لأن الورد شوكته قويه

ثم ينبرى النرجس للرد على الورد فى تحد بالغ ، معدد ا مساوئه ،ومفتخرا عليه بماله من فضل وأثر فعال فى شفاء الكثير من الأمراض ، فيقول :« لقد تجاوزت الحدياورد ، وزعمت أنك جمع فى فرد ، إذا اعتقدت أن لك بحمرتك فخره ، فانها منك فجره ،قال النبى صلى الله عليه وسلم :« إن الشيطان يحب الحمره ، فإياكم والحمره ، وكل ثوب ذى شهره ، وإن قلت إنك النافع فى العلاج ، فكم لك فى منهاج الطب من هاج ، ألست الضار للمزكوم المعطس للمحرور الدماغ عند السموم ، المضعف للمياه النائم بلا انتباه ، أتغتر ببردك القشيب ،وأنت الجالب للمشيب ، فاحفظ بالصمت حرمتك ، وإلا أكسر بقائم سيفى شوكتك .

ولكن أنا القائم لله فى الدياجى ، الساهر طول الليل فى عبادة ربى ، فلا تطرف أحداقى ، وأنا مع ذلك المعد للحروب ، المدعو عند تزاحم الكروب ،وأنا المشبه فى عيون الملاح ، والمعروف فى مهمات الأدواء بالصلاح ، أنفع غاية النفع من داء الثعلب والصرع ،وقد روى فى حديث راويه غير مقل ولامفلس : «شموا النرجس فإن فى القلب حبة من الجنون والجذام والبرص لايقطعها إلا شم النرجس) .

وشمى ينفع من وجع الرأس والزكام البارد ،وفى تحليل قوى لمن هو له قاصد ، ودهنى نافع لأوجاع العصب والأرحام ، وأوجاع المثانة والأذن والصلب من الأورام .

ولولا اشتهارى بالنفع من الحوى ماأكثر النحاة التمثيل بقولهم ؛ نرجس الدواء. ومن الدليل على صلاحى أن أبا نواس غفرله بأبيات قالها فى امتدا حى :

تأمل فى رياض الأرض وانظر إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين فاخرات بأحداق كما الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك (١)

وعلى هذا النحو يجرى السيوطى المفاخرة بين بقية الأزهار ، ويجعل كل زهرة تفاخر بمنافعها وفضلها وفوائدها فى الطب والعلاج ، ويذكر ماورد عنها فى القرآن الكريم والحديث الشريف والأخبار والأشعار حتى تنتهى المناظرة ، وهنا تحدث مفاجأة طريفة إذ تحتكم الأزهار المتناظرة إلى عالم بالأصول والفروع ، حافظ للاثار الموقوف منها والمرفوع ، فيقضى بالفوز والتفوق لزهرة ليست من بين هذه الأزهار وهى زهرة الفاغية (الحناء) ذات الفوائد الجمة والمزايا المهمة والتى كانت أثيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى بريدة عنه قوله : « سيد الرياحين فى الدنيا والآخرة الفاغية » (٢)

ويمكن القول بأن السيوطى قد جعل من الصراع المحتدم بين هذه الأزهار رمزا للصراع الذى كان يجرى بين الشعب والمماليك آنذاك أو للجدل بين العلماء .

«إن المقامة مترعة بالأسلوب الدفاق المرتاح برغم الصناعة البديعية التى توشيها بين الحين والحين ، وفيها جناس كثير وفيها توريات عديدة ، والمقامة بعد ذلك يمكن أن تمدنا بديوان شعر لطيف فى موضوع الزهريات والشعر فى الأزهار حسبما نعرف يعتبر من أرق فنون الشعر وأوفرها جمالا وألطفها خيالا (٣)» .

وقد رسم السيوطى فى هذه المقامة لوحة فنية رائعة نابضة بالحياة والحركة ، حافلة بالألوان المختلفة ، زاخرة بالصوت ، فواحة بالشذا ، فقد شخص الأزهار وجعلها أناسى تتحاور وتتجادل فى أسلوب حجاجى قوى ، عمد فيه إلى السجع المؤثر الذى يطول ويقصر ، فدل بذلك على خصب خياله ورحابة أفكاره وعمق ثقافته ورقة طبعه ، وقدرته على التنويع والتلوين .

وبعد عرض هذه النماذج من مقامات السيوطى أخلص إلى القول بأن السيوطى قد أحدث تطويرا فى هذا الفن من حيث الشكل والموضوع والمضمون ، فهو لم يلتزم فى مقاماته بوحدة الموضوع التى نراها فى مقامات بديع الزمان الهمذانى

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٨ .

(٣) السيوطى كاتبا أديبا ص ٤٢٧ .

والحريرى ومن لف لفهما من كتاب المقامات ،والتى كانت تدور حول التسول والكدية، فالبطل فيها أديب شحاذ .

كما أن السيوطى طور فى شكل المقامة، فجاءت مقاماته فى شكل مقالات ورسائل وتخلو من الراوية والبطل فى معظمها

والقليل من مقاماته أتى فى شكل المقامة القصصية المألوفة مثل : المقامة المكية التى اتخذ لها راوية هو هاشم بن القاسم وبطلا هو أبو بشر العلا ؛ فهو يستهلها بقوله : « حدثنا هاشم بن القاسم قال : مازلت أقتحم المهامه المخيفة وأدخل فى المسالك العنيفة إلى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططت الرحال بعتابها ، وأرحت النفس من عذابها . . . » .

وفى نهاية المقامة يسأل الراوية البطل عن اسمه فيجيبه بأبيات يقول فيها :

ياراغبا فى أربى	وهائما فى أدبى
وعالما برتبتى	ورفعتى فى الرتب
إنى أبو بشر العلا	فى تاج أهل الأدب (١)

ومقامته التى أسماها « رشف الزلال من السحر الحلال » أو مقامة النساء، فقد جعل لها راوية هو أبو الدر نفيس بن دريس وعشرين بطلاهم : المقرئ والمفسر والمحدث والفقيه والأصولى والجدلى واللغوى والنحوى والصرفى وصاحب المعانى وصاحب البيان وصاحب البديع وصاحب العروض والكاتب وصاحب الحساب وصاحب الهيئة وصاحب الميقات والطبيب وصاحب المنطق والصوفى(٢).

ومقامته الوردية التى تخيرلها رواية مسندة لطيفة يقول فيها :

«حدثنا الريان عن أبى الريحان عن أبى الورد أبان عن بليل الأغصان عن ناظر الإنسان عن كوكب البستان عن وابل الهتان قال : مررت يوما على حديقه ، خضرة أنيقه ، طلولها وديقه ، وأغصانها وريقه . . . » .

---

(١) السيوطى كاتبا أديبا ص ٤٣٠ .

(٢) نفسه ص ٤١٨ .

ونلاحظ أن الراوية والبطل يختلفان فى كل من هذه المقامات بينما يبدو فيها هيكل المقامة القصصية واضحا جليا

وفى مقامات السيوطى معجم لغوى ثرى يدل على تمكنه من زمام اللغة ، وحسن تصرفه فيها ، كما أن فيها معجما طبيا يثبت معرفته الواسعة فى مجال الطب.

وفيها المعجم الأدبى الذى يتجلى فيما زخرت به من أخبار وأشعار وحكم تظهر فيها ثقافته الأدبيه العريضة ، وفكره الموسوعى .

كما تظهر النزعة الدينية عند السيوطى ، وتأثير الثقافة الإسلامية فى مقاماته الوعظية والدينية ، فالسيوطى « كإمام جليل من أئمة زمانه ، وعالم كبير من علماء الإسلام ، وكصاحب قلم وفكر وزهد ورسالة وجد من طبيعة كيانه أن يدعو إلى الخير وأن ينهى عن الشر ، وأن يرشد وأن يزجر ، وهذه المبادئ تقع من العقيدة الإسلامية فى صلبها ، فإن من مواد الدستور الإسلامى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء سعادة الناس كل الناس ، وصلاح المجتمعات كل المجتمعات(١)»

وهو يحرص على أن يبدأ هذا اللون من المقامات بآيات من القرآن الكريم . وبالأحاديث الشريفة ؛ فهو يستهل مقامته الذهبية فى الحمى بقوله : قال الله تعالى فى كتابه العزيز وكفى بالله حكما عدلا مرضيا : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا» ، ثم يقول : وورد فى عدة من الأخبار عن النبى المختار أنه قال : « الحمى كسر من جهنم فما أصاب المؤمن منها كان حظه منها من النار ».

ومقامته قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض يبدؤها بالآية الكريمة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم» .

كما يبث المصطلحات الفقهية ومصطلحات الحديث والقراءات التى يجريها على لسان المقرئ والمحدث والفقيه والأصولى فى المقامة الطاعونية ، فهو يقول — مثلا — على لسان المقرئ :

«هذا باب الإدغام الكبير فى اللحود ، والإخفاء لكل بدر منير مغرب فى الأخدود ، والإقلاب لكل عبد أبق إلى فلك الردى وبر ودود ، لئن تكرر هذا

(١) المرجع السابق ص ٣٩٣ .

المد المتصل فى الأكفان ليتلون كل منفصل كل من عليها فان ، ولئن هجم هذا الدانى بحملته على القوم ليقولن كل امرئ منهم لا عاصم اليوم »

فهو فى وصف محنة الطاعون التى أجراها فى براعة على لسان المقرئ قد استخدم مصطلحات القراءات من إدغام وإخفاء وإقلاب ومد متصل ، كما أتى بتورية لطيفة عن عاصم صاحب إحدى القراءات المشهورة مشيرا إلى قوله تعالى : « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » .

وقد أجرى وصف هذه الكارثة أيضا على لسان المحدث ، فقال :

«قد جرى الدمع المتراكم ونفذ فى العام الماضى ما حكم به الحاكم ، من صحيح أصبح للوساد مسندا ، وعزيز أضحى فى لحده غريبا مفردا ، وضعيف أصبح على النعش موضوعا ، وعلى أعناق الرجال مرفوعا ، وكم متصل الحياة به صار منقطعا ومقطوعا . . . . . (١) » .

فنحن نرى السيوطى يستعمل مصطلحات الحديث وأنواعها من صحيح ومسند ومفرد وضعيف وموضوع ومرفوع ومتصل ومقطوع .

كما يتجلى تأثره بدراساته النحوية والصرفية فيما أورده من قواعد وشواهد حين وصف جزيرة الروضة بمصر التى كانت سكناه ، وأتى بأبيات جاء فيها :

فى روضة نصبت أغصانها وغدا ذيل الصبا بين مرفوع ومجرور
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها والماء يجمع فيها جمع تكسير

وقوله فى معرض حديثه عن الكعبه : « رفع الله أعلامها فى الابتدا ، ونصب إشارة القبول للمضاف إليها بالندا ، وتعرف ممن تعلق بذيولها ، ولم يقطع عائد موصولها ».

وكما نرى فى قوله على لسان النحوى فى المقامة الطاعونية : قد أفنى ذلك العام الماضى كل خليل ، وأتى بكل خطب جليل ، تواترت فيه من القاضية

(١) المقامات المطبوعة ص ٦٩ .
(٢) نفسه ص ٦٣ .

جمل ، ولم يبلغ فيه من الشافية أمل » كم ساء فيه من حال ، ورفع كل فاعل ونائبه ولحق كل مطلوب بطالبه ، وجمع الموت بين كل مصحوب وصاحبه ، وكم أخذ من كبير مفخم ، وأخلى من بيت مرخم ، فإن عاد ضمير الفصل ، وقضى الشأن له بالوصل ، فورب الليالى وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لئن عطف عاما بعد عام على نسق ، ليقطعن عائد كل موصول ، وليذهبن كل ذى حاصل ومحصول ، وليفتحن بابى الاستغاثة والندبة ، وليرفعن بابى التمييز والنسبة. . . »

فقد ذكر من أبواب النحو الحال والفاعل ونائبه وضمير الوصل والفصل والعطف والموصول والعائد والاستغاثة والندبة والتمييز وغيرها .

وفى مقامات السيوطى تبدو ثقافته العلمية ومعلوماته الطبية الواسعة كما رأينا فى مقامته الوردية ومقامة الحمى ، وكما هو الحال فى مقامات المفاخرات عنده كالمقامات : المسكية والتفاحية والفستقية والياقوتية ؛ فقد جعلها معرضا للفوائد الطبية .

وأسلوب المقامات عند السيوطى يتسم بالسهولة والوضوح والبعد عن الحشو والتعقيد ، فنحن لا نجد فيه الإغراب فى اللفظ ولا الإغراق فى المعنى ، ولا الصنعة البديعية المتكلفة .

وتبدو براعة السيوطى فى أسلوبه الأدبى حين يصف جزيرة الروضة ؛ فقد أجاد فى وصفها التعبير والتصوير ، ورسم لوحات جميلة لطبيعتها الساحرة ، وفيها يقول :

«روضة ذات محاسن ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأشجار تنبت أفانين الأحاسن ، وأزهار ما بين مفتوح العين ووسن ، وأطيار ترنم بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن .

روضه أريضه ، عيون أزهارها مريضه ، وأنواع البركات من نهرها مفيضه وتوازع الهموم والغموم بها مفيضه .

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس

روضة حى مجمع البحرين ، ومختار تقابل مطلع البدرين ، ومنهاج يسير فيه كل فلك من النواعير وبدر ، فهى على كل الأحوال ذات النورين .

ياحبذا فى الحسن ناعورة كأنها من فلك الشمس

تحمى حمى الروضة من مائها وشكلها بالسيف والترس

كأنها بدر والنيل حولها هاله ، أو شمس فى وسط سماء ليس عليها سحابة أو غلاله ، أو وجه دار عليه طيلسان ، أو سرير ملك نصب فى ميدان ، أو قلب جيش له مصر والجيزة جناحان ، تبرجت بأنواع الأزاهر البهجة ،لا بالشيح والقيصوم ، وناداها لسان الربيع ياروضة سنسمك بالخضرة على الخرطوم»(١).

فهى قطعة أدبية ذات أسلوب رائق جميل ، وقد وشاها السيوطى بألوان السجع والجناس اللطيف،وضمنها لأبيات الشعرية الرقيقة الملائمة للأفكار والصادقة فى التعبير ، وكان فيها متأثرا ببعض معانى القرآن الكريم ويخطئ من يظن أن جهد السيوطى يقتصر على نقله للتراث ؛ لأن ذلك إجحاف بالرجل ؛ فهذه المقامات والرسائل تشهد للسيوطى بعلو كعبه وثبات قدمه فى مجال التأليف ، كما أن نقله للتراث يعد ميزة له ؛ فقد حفظت لنا كتب السيوطى الكثير من التراث العربى الذى لا نجده فى غيرها ، وإن ما ذكره أستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب فى بحثه الضافى القيم الذى عرض على مؤتمر السيوطى(١)عن جهد السيوطى فى مجال التأليف من حيث التقديم والتأخير والتلخيص والإطالة وتفصيل الجزئيات ، وخطرات هنا وهناك تمثل رأيه واجتهاده مثل الحمل الاعتراضية والتعليقات وكثرة التخريج للنصوص ، كل هذا يدل دلالة قاطعة على أن جهد السيوطى لم يقتصر على جمع التراث ونقله ، وإنما كان موقفه منه موقف المؤلف والناقد والمتصرف .

وأخيرا فإن مقامات السيوطى تحتاج إلى بذل المزيد من الجهد ، ومواصلة البحث والتنقيب حتى نتمكن من جمع بقية مقاماته الأربعين وتحقيقها ، ليعم النفع وتعظم الفائدة ، والله الموفق والمستعان .

---

(١) مقامات السيوطى المطبوعة ص٦٣-٦٥.

(٢) عقد مؤتمر السيوطى بقاعة المؤتمرات بجامعة أسيوط فى الفترة من ٣ - ٥ من ابريل سنة ١٩٨٢ ، وقد ألقيت فيه هذا البحث .

أهم المصادر والمراجع

١ ــ تاريخ الخلفاء للسيوطى ط . دار نهضة مصر ١٩٧٦ .

٢ ــ جلال الدين السيوطى ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ب ١٩٧٦ (مقالة د. مصطفى الشكعة) .

٣ ــ حسن المحاضرة للسيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط . البابى الحلبى ١٩٦٨ ط أولى .

٤ ــ الأشباه والنظائر للسيوطى (النحوية) .

٥ ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ط . القاهرة ١٣٥٣ هـ ، ج٤.

٦ ــ الكاوى على تاريخ السخاوى للسيوطى ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥١٠ أدب .

٧ ــ المقامات الأدبية للحريرى ط . البابى الحلبى بمصر ،ط ٣ سنة ١٩٥٠ .

٨ ــ المقامة ، د . شوقى ضيف ، ط . دار المعارف ط٤ سنة ١٩٧٦ ــ.

٩ ــ مقامات السيوطى ، مخطوط بمكتبة رفاعة رافع الطهطاوى بسوهاج برقم ٣١٢ أدب :

١٠ ــ مقامات السيوطى المطبوعة .